أَنِتْ الحَيَاةْ

كطفل فى السابعة من عمره، كان يرى والدته تستيقظ مبكرا كل يوم، يسمعها وهى تصلى، كانت تختم صلاتها دائما بدعاء:

- ربى احفظ لى ابنى من كل مكروه.

لذلك كان يستيقظ كل يوم، فى نفس الوقت، لكى يراها تفعل ذلك، ثم بعد انتهائها يجرى مسرعا إلى غرفته، ليتظاهر بالنوم لا لشىء سوى لينتظرها لكى توقظه؛ فقد كان يحب كثيرا طريقتها فى إيقاظه حيث إنها كانت تجلس بجواره، وتضع رأسه فى حضنها، ثم تطبع قبلة مليئة بالحنان على جبينه، وتمسح بيدها على شعره، وهى تقول له:

- استيقظ يا صغيرى عالمك بإنتظارك.

كانت والدته تعنى السعاده، والأمان بالنسبه له، وما العجيب فى ذلك فهى كل عائلته فهو لم ير غيرها منذ ولادته. "

لكنه اليوم إستيقظ متأخرا على غير عادته، فاليوم لم يسمع والدته وهى تصلى، لكنه لم يفهم ماذا حدث ؟!

لذلك ذهب مسرعا إلى غرفتها، فوجدها مازالت نائمة حتى الآن، فظل يوقظ فيها لكنها لم تستيقظ، فأخذ يتحدث معها بصوت ندم حزين:

- أمى استيقظى أعلم أنك لا تريدين أن تتحدثى معى، وأعلم أيضا أنك مازلتِ غاضبة منى؛ فأنا أتذكر جيدا حديث البارحة بأننى إن خرجت من

المنزل دون علمك فلن تتحدثى معى، بل وأيضا سترحلين عنى، لكنى أعدك أننى لن أكرر هذا الخطأ مجددا لكن أرجوك لا تغضبى منى.

لكن والدته لم تستيقظ، ولم تستجب لكلامه.

وبنبرة طفولية يائسة قال لها :

- حسنا أنت مازلتِ غاضبة منى، ولا تريدين الحديث معى لذا عقابا لى سأجهز نفسى، وأذهب إلى المدرسة بمفردى، لكن عند عودتى أريدك أن تكونى قد سامحتنى.

وعند عودته من المدرسة سمع أصواتا غريبة من داخل البيت، سمع نساء يصرخن ويولولن، لكنه لم يفهم ماذا حدث؟!

فذهب إلى غرفة والدته ليرتمى فى حضنها كعادته عندما يشعر بالخوف، لكنه لم يجدها، فظل يبحث عنها كالمجنون، أو كالخائف من وحش كاسر يريد أن يأكله، إلى أن أمسكت به عمته هى تقول:

- لا تحزن يا عزيزى؛ فوالدتك ذهبت إلى الله.

كطفل لم يفهم هذا الكلام، لكنه أدرك أن والدته مازالت غاضبة منه لذا تركته ورحلت.

فكان فى هذه اللحظة كالعصفور التائه عن عشه، أو كالأعمى الذى فقد عصاه.

لكن الغريب فى ذلك أنه لم يبك كبقية الأطفال، بل ظل طوال شهر كامل لم يتحدث إلى أحد، حتى أنه لم يتذمر من معاملة عمته السيئة، أو سخرية معلمته من ملابسه المتسخة.

فقد كانت والدته عالمه الوحيد، وما أجمله من عالم ذلك الذى لا يتجاوز حضن الأم، لكن كيف لهذا العالم أن ينبذه؟! أيعقل للسماء أن تسقط قمرها دون أن يتحول العالم لظلام!!

شعر بغضب شديد من والدته التى تركته وحيدا، وشعر بغضب شديد من نفسه فقد حمل نفسه منذ البداية مسئولية رحيلها، فهو يعتقد أنها رحلت عقابا له، لكنه أرادها أن تعود إليه مجددا، أراد أن يعتذر لها، وأراد أيضا أن يقول لها:

- كفاك يا أمى عقابا؛ فلم أعد أحتمل.

لذا ألح على عمته كثيرا لتريه مكان تواجدها، وبعد الكثير من الإلحاح أخذته إلى قبرها.

جلس بجوار قبرها وأخذ يتحدث معها بصوت مخنوق من شدة كتمان البكاء:

- أمى الحبيبة يقولون إنك ذهبتِ إلى الجنة، وهى مكان جميل، وأنك أيضا تسكنين بجوار الله، لكنى أفتقدك كثيرا، عمتى لاتهتم بى مطلقا، وتوبخنى دائما دون سبب، كما أنها تقول لى دائما: ليتك تذهب إلى أمك وتريحنى منك، كما أننى أذهب إلى المدرسة بملابس متسخة فتأنبنى معلمتى، وتضربنى أمام زملائى، وقد قالت لى ذات مرة: أليس لك أم تهتم بك؟!

فاجبتها: - نعم لى لكنها الآن بجوار الله.

عودى يا أمى إلى البيت، فأنا لا أقوى على فراقك، إذا لم تعودى، حسنا خذينى معك فأنا أريد أن أرتمى فى حضنك، أريدك أن توقظينى مجددا، أريد أن أسمع دعاءك مرة أخرى.

حسنا يا أمى أنت لازلتِ غاضبة، لذا سأتحدث إلى الله فى هذا الشأن:

عزيزى الله، أمى لا تريد أن تتحدث معى، أو تعود إلى البيت، لذا أتوسل إليك أن تأخذنى إليها، وأعدك أننى لن أتشاقى، أو أغضبها مطلقا.

احتضن قبر والدته بشدة، وأغمض عينيه، ولأول مرة، منذ وفاتها، أخذت الدموع تنهمر من عينيه، كأنها كانت حبيسة وأطلق حراسها.

وفجاءة ارتسمت على شفتيه ابتسامة رقيقة، أحسن بارتياح شديد، فقد سمع أمه وهى تصلى، شعر بها تأخذه فى حضنها، وتقبله وهى تقول له:

- استيقظ يا عزيزى، فلن يسىء أحد معاملتك بعد اليوم، أنت الآن فى مكان آمن، أنت الآن فى حض أمك.

نعم، فقد استجاب الله دعاءه.

فاتن عبد الرؤوف

obeikan.com